الأنثروبولوجيا في الوطن العربي وإشكالية فهم الأنا والآخر

د. كمال بوغديري- جامعة بسكرة- الجزائر

الملخص :

تتناول هذه المداخلة موضوعا في غاية الأهمية يتعلق بوضعية الأنثروبولوجيا في الوطن العربي ودور هذا العلم في تفسير وتحليل الواقع الاجتماعي والثقافي العربي من خلال إنتاج قواعد منهجية تؤسس لميدان علمي جديد رغم أسبقية فكر الأخر على واقع الأنا. ومن هذا المنطلق تكمن إشكاليتنا البحثية في مدى تطبيقية هذا العلم بآليته المنهجية والفكرية في فهم واقعنا العربي. كما نهدف من خلال هذه المداخلة إلى إبراز مدى تأثير هذه التبعية في فقدان الهوية الأنثروبولوجية في تحليل واقع ومكانة الفكر الأنثروبولوجي في الوطن العربي رغم الحضور الأكاديمي المؤسس المتمثل في مختلف الشعب الجامعية ومراكز البحث التي تتواجد في دول الوطن العربي، ونتج عنه كم من الإصدارات العلمية .

هذه المداخلة هي محاولة للفت انتباه المهتمين بهذا العلم والمتخصصين فيه إلى إعادة النظر فيما أنجزه هذا العلم لاستشراف مستقبل الوظائف التي ينبغي للأنثروبولوجيا مستقبلا القيام بها في الوطن العربي.

Abstract :

This communication addressed a very important subject it concerns the status of anthropology in the Arab world and his role in Interpretation and analysis of the Arab social and cultural reality by the production of the systematic rules to establish a new scientific field, Despite the primacy of the other thought about the reality of the ego. In this sense, research is based on the application of this scientific and intellectual methodology in the understanding of the Arab reality. The main objective of this intervention is to highlight the impact of this dependence on the loss of Anthropological identity and the status of anthropological thought in the Arab world, despite the analysis of the founding academic Various academic centers and research centers that exist in the Arab countries, and scientific publications. Such an intervention is an attempt to draw attention to those interested in this science and specialists to reconsider accomplished this science to explore the future of jobs that should be future Anthropological work in the Arab world.

مجلة التغير الاجتماعي ـــــــــ العدد الرابع

مقدمة:

بعد أزيد من نصف قرن مضى من الزمن على نشأة ما يمكن أن نسميه الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، حيث أصبح لهذا العلم حضور مؤسساتي تمثل في كليات وأقسام جامعية ومعاهد ومراكز بحثية غطت معظم أنحاء الوطن العربي ونتج عنها كم هائل من المعلومات، من إصدارات للكتب والدوريات ورسائل الماجستير والدكتوراه، آن الأوان للمهتمين بهذا العلم والمختصون فيه إلى إعادة النظر فيما أنج زه هذا العلم وأيضا فيما لم ينجزه لتكون حصيلة المعرفة المستفادة من تجارب هذه الممارسة الطويلة، منطلقا لاستشراف المستقبل والتخطيط له وتحديد المهام التي ينبغي لعلم اجتماع المستقبل القيام بها في الوطن العربي، خصوصا ونحن نشهد في السنين الأخيرة اهتماما متزايدا، وتركيزا شديدا على علم الاجتماع في الوطن العربي.

تقودنا تحليلاتنا اليوم نحن كمنشغلين في مجال الأنثروبولوجيا عن معرفة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والمجتمع وأي رهانات يطرحها هذا العلم وكيف واجه هذه التحولات المجتمعية هل تمكنت الأنثروبولوجيا من مواجهة تاريخها لقراءة واقعها. كيف تمركزت القاعدة المنهجية في الطرح الأنثروبولوجيا وهل حملت هذه الصورة انعكاسا على تعليمية الدرس الأنثروبولوجي وكيف واجهت الأنثروبولوجيا تطور المجتمع وبالتالي نتساءل عن الدور الأنثروبولوجي وتطور المجتمع, إذن يعود السؤال وبإلحاح إذا كان الإنتاج الأنثروبولوجي العربي(الجـــزائري) قد انعكس فعليا اتجاها إيديولوجيا في الأنثروبولوجيا وهل استطاع أن يبلور قضاياه المجتمعية

ولقد تعاونت الدوافع والأسباب لهذا الاهتمام المتزايد بالأنثروبولوجيا وتبعا لذلك تباينت حوله الآراء في الدور الذي يقوم به. وعليه يمكننا التساؤل عن واقع ومكانة الفكر الأنثروبولوجي في الوطن العربي.

الأنثروبولوجيا في السياق التاريخي:

يتفق الكثير من المهتمين بتحليل المعرفة الإنسانية في السياق التاريخي، أن الفكر الاجتماعي يتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع وذلك على الرغم

من أن للفكر قدرا من الاستقلال النسبي الذي يتمثل أحيانا في تقدمه على الواقع الاجتماعي أو تخلفه عنه، فإنه في نهاية الأمر محكوم عليه بعوامل موضوعية تجعله أحيانا أكثر توضيحا للواقع من أجل تجاوزه وأحيانا أخرى أكثر تزييفا للواقع من أجل الحفاظ عليه.[1]

إن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ولدت فيه الأنثروبولوجيا في الوطن العربي قد لعب دورا أساسيا في توجهه وكذا تحديد هويتها، ولقد كان الواقع الذي ولد ت فيه الأنثروبولوجيا في الوطن العربي هو واقع الاستعمار الذي سعى لتقسيم الوطن العربي إلى مناطق ونفوذ ودويلات سياسية، وسعى إلى تحريك الصراعات داخل كل دولة، مستغلا في ذلك الأطر البنائية التي أنشأها داخل كل دولة والتحالفات التي كونها أو تلك التي وجدها فدعمها ورعاها والمتمثلة في التكوينات الإثنية والقبلية، وما يهمنا نحن مثل هذا الواقع قد طبع العلم والفكر في الوطن العربي بطابع خدم ولا يزال يخدم مصالح نخب على حساب الأغلبية حتى وإن كان ذلك على حساب الدولة أو الأمة العربية ككل، كما لا ننسى أن القوى الاستعمارية وتحالفاتها قد وظفت البحوث والدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية لخدمة وتكريس مصالحها، بل كان البحث الاجتماعي في خدمة الاستعمار بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العلوم في تلك الفترة، وقد ظهرت أسماء مشهورة في هذا الأمر مثال سيلجمان، وايفانز برتشارد وديل إكلمان، ودرمنغهايم وبول ريدش وغيرهم كثيرون.

بل حتى الإداريون الذين كانوا يُرسلون لإدارة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية في مستعمراتهم مستخدمين في ذلك منهاج وطرق بحثية معروفة مثل المسح الاجتماعي والمقابلة والملاحظة بالمشاركة والرصد الدقيق للبيئة، بل لقد أصبحت سياسة راسخة للاستعمار الفرنسي ألا يرسل إداري للمستعمرات إلا بعد أن ينال تدريبا وتأهيلا في العلوم الاجتماعية مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم اجتماع اللغة.[2]

والنتيجة أن هؤلاء الباحثين والإداريين قد أرسوا تقاليد بحثية كانت لها آثارها الهامة في مستقبل البحوث الاجتماعية حتى بعد مراحل التحرر السياسي لتلك الدول وأصبحت

تلك المعلومات والدراسات التي ذكرتها مراجع أساسية لا يستطيع باحث تجاهلها بل وفي كثير من الجامعات والمعاهد أصبحت تلك الدراسات والبحوث تشكل أهم مكونات المناهج التعليمية التي تدرس فيها وأصبحت تشكل نماذج إرشادية صبغت البحوث والدراسات الأنثروبولوجية بصبغتها.

أما البحوث والدراسات الاجتماعية التي قام بها السوسيولوجيون والأنثروبولوجيون في فترة ما بعد الاستقلال فيمكن تصنيفها بحسب الجهات(الجامعات والمراكز)، فلعل التصنيف الآتي يؤدي الغرض نريد توضيحه في ورقتنا البحثية هاته.

واقع ومكانة الفكر الأنثروبولوجي في العالم العربي:

إن الملاحظة العامة على واقع الفكر الأنثروبولوجي الذي يختص به في الوطن العربي أنه يفتقر إلى آليات بروزه كعلم في حد ذاته، رغم أن الوطن العربي يحمل طاقات إبداعية تتمثل في مختلف الأعمال النقدية البناءة التي تصف وتحليل المشاكل والظواهر الاجتماعية.

وما يلاحظ كذلك أن الكثير من الباحثين العرب يركزون في أفكارهم الخاصة بمختلف العلوم الاجتماعية على الفكر الأوروبي وهنا تتشكل أزمة علم الأنثروبولوجيا العربية لأن هذا الفكر مرتبط بالبيئة واحتمال أن تكون أزمة الأنثروبولوجيا العربية مرتبطة بكون هذا العلم نشأ في بيئة غربية بحتة، تتمتع بخصوصيات ثقافية متعددة، ولهذا تظهر معوقات تطبيق مفاهيمه ونظرياته على مجتمعاتنا العربية التي تختلف عن باقي المجتمعات، وفي هذا السياق يؤكد أحد الباحثين العرب أن كثيرا من لمختصين من العرب في ميدان الأنثروبولوجيا العربية يكرسون أوقات ثمينة وجهودا طائلة لإثبات نظريات واتجاهات ولدت ونشأت في مجتمعات أخرى وفي ظروف مغايرة فنجدهم يتفننون في تدقيق بعض المصطلحات ويسلطونها من أعلى على الأوضاع الاجتماعية العربية، ومهما كانت علمية تلك المفاهيم تبقى من صنع المجتمع الغربي وأن استخدامها بسم المعرفة العلمية غير وارد لأنها لم تأخذ بالحسبان كل الأوضاع الممكنة إنسانيا ولكن البعض منها فقط، فننقلها بتلك السرعة والبساطة إلى المجتمع العربي يكون حجر العثرة في مسيرة البحوث الاجتماعية العربية[15] ، والتي تمنع من الوصول إلى فض

النزاع القائم بين الأنثروبولوجيا في المجتمعات الغربية وبين علم الاجتماع في المجتمعات العربية وهذا لما تحمله هذه المجتمعات من خصوصية، فلماذا لا يمكن لنا أن نجد علما يهتم بواقعنا العربي، نعرف أن هناك خصوصيات اجتماعية داخل العالم العربي تختلف باختلاف الأعراق والقوميات والجهات لكننا نجد أن هذه الخصوصيات تمحى في مجملها أمام الثوابت الإسلامية والعربية التي تلتزم بها كل منطقة من هذه الثوابت الإسلامية العربية التي تلتزم بها كل منطقة من هذه المناطق على حدا، فهل يمكننا أن نتخذ من هذه الثوابت العربية الإسلامية معيارا لإيجاد أثروبولوجيا عربية إسلامية تقارب الرؤى وتعمل على اندماج الشخصية الإسلامية ما دامت الأنثروبولوجيا حسب التجربة الغربية هي الأداة القادرة على العلاج الاجتماعي.[16]

أما مكانة الأنثروبولوجيا في دول الوطن العربي فهي عبارة عن وجود أزمة ثقة الأنثروبولوجيا وبين تنظيمات مختلف المؤسسات الرسمية بعكس ما يحصل في الدول الأوروبية المتقدمة صناعيا، والجدير بالذكر أن سبب حذر القائمين على السلطة السياسية هو عدم الأخذ بأهمية الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية وخاصة في ميدان التخطيط الاجتماعي والاقتصادي ودراسات الرأي العام وأساليب التوقع والتنبؤ والاستطلاعات الاجتماعية والنفسية.

والواقع أن المؤسسات الرسمية في الوطن العربي ما تزال تتجاهل الدور الحقيقي الذي يمكن أن تلعبه الأنثروبولوجيا في التأثير الإيجابي فيما يخص التحولات الجارية في المجتمع سواء في الميادين السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الإعلامية[17]

أما من ناحية المجتمع فالكثير من أفراده لا يعلمون عن هذا العلم إلا الاسم ونجد أن الكثير من الباحثين في الفكر الأنثروبولوجي العربي ينظر إليهم نظرة استغراب، ويعتقدون أن كل من ينتسب إلى هذا العلم متآمر ويساعد السلطة التنظيمية في هدم الدولة وهذا واضح في الحقل الأنثروبولوجي عند ممارسة الباحثين الإجراءات المنهجية أثناء جمعه للمعلومات حول الظاهرة المدروسة حيث نجد مجتمع البحث يغيب عن الإجابة أثناء توزيع الاستمارات أو المقابلات ويلتزم بالتحفظ وفي المقابل نجد واقع الأنثروبولوجيا في المؤسسات

التعليمية والجامعات العربية يصنف ضمن آخر العلوم من حيث الترتيب ولا يعار له أي اهتمام.

أنثروبولوجية الآخر في قــراءة الأنا:

إن البحث في مسألة حوار الأنا والآخر في الطرح الأنثروبولوجي، تتيح لنا رؤية هذا الأنا الذي يبحث عن خصوصيته الثقافية والحضارية من خلال محاولته لقراءة واقعه الاجتماعي وتخلفه المجالي باعتماده على الخطاب العلمي السوسيو أنثروبولوجي الذي نشأ في بيئة معرفية واجتماعية موضوعية غريبة عن الأنا، وهذا الذي يعد أهم حصار لرغبة الأنا في شرعنة خصوصيتة أمام الخوف من فقدان الهوية وبالتالي السقوط في التبعية.

لذلك نجد أنفسنا غير قادرين على أن نفصل معرفيا الظروف التي نشأت فيها السياقات البحثية الأنثروبولوجية بكل تيارتها التنظيرية وعلاقة الفعل بالفاعل وهذا ما يطرح إشكالية علاقة الأنثروبولوجية بأفرادها وبيئتها وثقافتها وهنا نتساءل عن أي أنثروبولوجيا نتحدث، وهل نكتفي بحسنا الأنثروبولوجي نحن كباحثين أم يبقى الهاجس الإبستمولوجي المنهجي أحد معوقات فهمنا لذاتنا؟ وبالتالي السير نحو نوع من التقدم الفكري، في مقابل نظرية تقدم الآخر تبرز بقوة وبتأثير كثير على أطروحاتنا وهكذا تصبح القاعدة الحوارية لأسئلتنا الأنثروبولوجية والعودة للوقوع في إعادة هذا السياق التنظيري الغربي بلسان الآخر في قراءة وتحليل واقع الأنا وهنا يبرز الخطاب الأنثروبولوجي كخطاب خارج عن منظومة الأنا، من هذا المنظور نشأت ثقافة هيمنة الأخر على الأنا وبالتالي اغتراب الخطاب الأنثروبولوجي وفقدان هويته، ولقد ظل هذا الإشكال يعالج في مجمل الكتابات البحثية والملتقيات العلمية والدولية وخاصة في المجتمعات التي برز فيها الخطاب الأنثروبولوجي وكانت من المجتمعات السباقة في الزرع الأنثروبولوجي من أمثلتها مصر والجزائر.

فالخطاب الأنثروبولوجي مثله مثل الخطابات العلمية التي لها علاقة بالمحيط الذي نشأت وانتعشت فيه حتى أسست نموذج معرفي يحقق الهدف المنشود وهو تحديد معالم

الأنساق الثقافية والاجتماعية وبلورتها في أطر فكرية ونظرية. ولذلك فمن غير الممكن الفصل بين الإطار والسياق الاجتماعي وبين هذه التيارات الفكرية التي قدمت لنا نماذج معرفية لفهم الأخر وخطابه وممارساته. وهنا نتساءل عن علاقة المجتمع بخطاب كان وليد نظرة أوروبية استعلائية كولونيالية، أو مستورد من واقع مغاير تماما لواقعنا وخصوصياتنا المجتمعية والثقافية لينتج لنا في الأخير خطابا مشوشا يفتقد للنظرة الموضوعة وبين هذا وذاك وفي ظل العجز الواضح على الوصول لإنتاج أنثروبولوجي للفضاء المعرفي والسياق الاجتماعي الخاص بنا. كل هذه الإشكاليات سنحاول تلمسها ومحاولة الاقتراب منها بغية لمس جوهر أحد الأسباب في عدم تقدم البحث الأنثروبولوجي في الجزائر مع عدم إمكانية الوصول لنمط معرفي يعري ويفسر لنا الواقع الاجتماعي وما يفرزه من ظواهر ومشكلات اجتماعية .لماذا لم توظف التنوعات الثقافية ومختلف الأزمات المجتمعية في إنتاج القاعدة الأنثروبولوجية، ومن هنا تطرح مسألة ارتباكا للمهتمين والباحثين في ميدان الأنثروبولوجيا كأولى قضايا هذا الطرح.

الأنثروبولوجيا ومشروع المجتمع:

إذا انطلقنا من مسألة تأصيلية لعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا بإرجاعه إلى الظروف الغير سوية وطابع الفوضى التي عاشتها أوربا، فهذا يعود بنا إلى أزمة فكرية عاشتها هذه المجتمعات وبالتالي فرضت عليها تلك الحتمية الاجتماعية تفسير وتحليل الواقع وفق آلية منهجية وقاعدة معرفية، ومن هذا المنطلق فإن دراسة الحالة الاجتماعية للنظم والأنساق الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية سواء كانت جماعات صغيرة أو مجتمعات كبيرة، كما تعرف على أنها دراسة التفاعلات الاجتماعية وهو بهذا اعتبر توجه أكاديمي جديدا تطور في القرن التاسع عشر. إلا أن المتتبع للمسار التاريخي العلمي نجد بعض إرهاصات هذا العلم في العالم العربي تجسدت في كتابات عبد الرحمن ابن خلدون في دراسته للمجتمعات العربية وغيرها في شمال إفريقيا حيث استطاع تصنيف النظم الاجتماعية[10]، هذه الأطروحة تمكننا من القول أن العرب هم من تعرفوا على هذه الأنثروبولوجيا وبالخصوص الدوركايمية التي هيمنت على أطروحات المهتمين بالسوسيولوجية والأنثروبولوجية في العالم العربي المتأثرة

بأفكار المدرسة الاجتماعية الفرنسية ومنها أفكار مارسيل موس وليفي برول وإيميل دوركايم.

ولكن رغم هذه التراكمات المعرفية، لماذا لم نشهد ميلاد أنثروبولوجيا عربية أم أن مسألة الأنثروبولوجيا بقيت مرهونة بفكرة فشل مشروع المجتمع وبمسألة تمثلات السلطة الحاكمة لهذا العلم وهل يعتبر ضمن أولويات الأطروحات الأكاديمية التي تتسق مع حاجات المجتمع أم أنه تخصص مثل التخصصات الأكاديمية له وظيفة خارج عن نطاق المجتمعي؟.

إن الأنثروبولوجيا تتميز بالحقل أو المجال الذي تشتغل عليه، فالمجتمع العربي يمثل فردانيته السوسيوثقافية وله مفاهيم سوسيوثقافية، خاصة به مستقلة مقارنة بجملة الحقول المنتجة في المجتمعات الأخرى وذلك راجع لوضعيته. وهذا ما يجعلنا نحقق ونساءل مفهوماتيا المعارف المنتجة والممكنة للأنثروبولوجيا في العالم العربي والتي على أساسها أسست لنا القاعدة الإنتاجية المعرفية للمجتمع العربية لكن هذا المعنى يجعلنا نطرح مشكلة عدم إمكانية تحليل المجتمع العربي وإمكانية إنتاجية قاعدة مفاهيمية حول موضوع يوازي المعارف السوسيولوجية والأنثروبولوجية .

إن السؤال الجوهري المُلح يتمحور حول دور الباحث الاجتماعي أو المفكر إذ تتداخل على مستوى الخطاب لهجتين أو خطابين أحدهما علمي والآخر إيديولوجي (الأنثروبولوجي والسياسي) إذ يفترض أن لكليهما هويتهما لكن في مجتمعنا العربية فالخطاب معقد نظرا لما يطرحه من وضعيات فالوضعية السياسية كانت بحاجة لجملة من الدراسات السوسيو أنثروبولوجية.

ففي الجزائر مثلا نجد أن الأنثروبولوجيا أقصيت من المجال العلمي ومن التصنيف الأكاديمي لحساب السوسيولوجية التي أقحمت في المجال السياسي مجردة من النظرة الموضوعية والنقدية التحليلية. لذلك نجد أن معظم التحليلات انصبت في التفسير الماركسي الذي يركز على العلاقات بين الطبقات الاجتماعية سواء على المستوى الاقتصادي أو على مستوى تحليل المنظومة التربوية بالرغم من وجود عدة تناقضات لهذا الطرح، ثم تلتها انفتاح السوسيولوجية على الفكر الغربي مما أدى إلى إعادة النظر في فهم الواقع وذلك بأجندة

بحثية مستقبلية، ولعل قراءات التراث المحلي من طرف الباحثين الجزائريين في مجال الأنثروبولوجيا تعد أحد الرهانات لإمكانية الوصول لأنثروبولوجيا محلية، لكن هذا الرهان دفع بنا إلى التقيد بجملة من الشروط وهو نقد العقل كجزء أساسي للوصول للعقلانية النهضوية (قراءة التراث) بآليات العلوم الإنسانية والاجتماعية وهذه أهم مرحلة يمر بها الباحث في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

التجربة الأنثروبولوجية في الجزائر:

إن التجربة الممارساتية للبحث الانثروبولوجي في الجزائر لم تكن إلا في مرحلة متأخرة، فصحيح أن الفرنسيين من ضباط وموظفين ورجال الكنيسة قاموا في فترة الاحتلال بدراسات كثيرة، أكثر من ذلك فإن السلطات الفرنسية كانت قد أمرت بإجراء بحث شامل. ربما على غرار ما جرى في مصر أثناء الحملة النابوليونية، فهي تمثل رصيدا هاما لمعطيات ومعلومات لا غنى عنها حول حقبة تاريخية لهذا البلد وقد ارتقت هذه الأبحاث إلى مستويات عليا منها المونوغرفيات التي أنجزت حول مناطق عيش البربر الأمازيغ حيث وظفت في أعمال دوركايم في (مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعي).[10] وقد استهدفت الدراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية في شمال إفريقيا والمجتمعات المغاربية لحظات مبكرة من التاريخ .فالإرث الكولونيالي يكشف لنا الإرهاصات الأنثروبولوجية التي كشفت عن أطماع الدول الأوربية وخاصة من طرف الاستعمار الفرنسي الذي حاول رصد مجمل الظواهر الاجتماعية وعلى جميع المستويات الثقافية والروابط الأسرية والقبلية... كما كان الاهتمام منصبا على السياق الديني للمجتمعات المغاربية كل هذا ساعد في التراكم الكمي والنوعي للطريق نحو الأنثروبولوجية الكولونيالية.

وهكذا كانت البدايات التمهيدية للأنثروبولوجية وخاصة بعد الأبحاث الميدانية التي قام بها بورديو **Bourdieu** إلا أن هذه الأعمال التي لم تنل الاهتمام في نهاية الستينات أي بعد مرحلة الاستقلال، إذ كان للاستعمار الأوربي تأثير على الأنثروبولوجية ولكنه كان

تقليدا للنظام الأكاديمي الغربي وبالتالي فترة بداية الدراسات الاجتماعية اتسمت بتطبيق قوالب فكرية ونظرية نمطية من المجتمعات الغربية ومبنية على التراث الغربي.[17]

ومن جملة التحديات التي واجهتها الأنثروبولوجية هي كون أننا أفراد اجتماعيين حيث نعرف تماما ما يدور من حولنا في مجتمعاتنا وهذا نتيجة التغيرات التي يشهدها المجتمع إذن نحن أمام تحديات تفرض علينا وبإلحاح مادام أن تكويننا السوسيولوجي يمهد لنا الطريق في الملاحظات لتلك الظواهر التي أفرزها هذا التغير لكن هذه الوقفة التأملية والملاحظاتية لا يمكن الاكتفاء بها دون الغوص والتعمق النظري مع التوغل في الميدان المراد معالجته.

إذن أصبح المجال الذي نعيش فيه بمثابة المادة الدسمة للبحوث الأنثروبولوجية وأمام مساءلة لهذه المعطيات بأليات أنثروبولوجية. وهكذا يصرح Oberti Mendras أن الميدان هو مصدر لكل خيال أنثروبولوجي عن طريق الاحتكاك بالواقع يكتشف الباحث الأنثروبولوجي نماذج جديدة تثري النظرية الأنثروبولوجية.[11] ورغم الفضاءات التي تستفز الباحث الأنثروبولوجي وخصوصا في مجتمعنا الجزائري الذي ظل يعيش وفق ثنائية التقليد والحداثة التي برزت بشكل قوي في مؤسساته وفي ممارسة الفاعلين. إلا أن الطرح السوسيولوجي ظل محصورا في الطرح الماركسي والذي ارتبط بالأيديولوجية الاشتراكية كنموذج لمشروع المجتمع. وهذا ما انعكس على تحليلاته وربط مؤسساته بعملية التنمية.

كما تميزت بتعاقد الباحثين فيما يعرف بالخطاب الإيديولوجي الشعبوي والذي تميز بالدور الفاعل في تقديم التزامات للجماهير الشعبية من تحريرها من الرابط الاستعماري والتبعية، وهنا قد نلمس الجانب الإيجابي والفعال للأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية. التي عرفت عدة منعطفات وانتقالات حيث لم ينظر إليها كأبحاث علمية مستقلة بل كإيديولوجية وضمن العلوم الكولونيالية ولعل هذه أحد الأسباب وراء تأخرها في مجتمعنا. وبالتالي أخذت الأنثروبولوجية كعلم اجتماعي وبدأت تأخذ طريقها إلى التبلور والتمايز والتميز سواء على المستوى النظري أو التطبيقي[15] إذن فهم الوضعية الاجتماعية بتلك الآليات الأنثروبولوجية ارتبطت بمشروع المجتمع الذي يسعى النظام الوصول إليه. إن الأزمة التي وقع فيها الطرح

الأنثروبولوجي في في العالم العربي عموما وفي الجزائر خصوصا ليست في كون اختيار أو اعتماد اتجاه نظري ما قصد تقديم تفسيرات لظواهره ثقافية واجتماعية معينة.

إن الأنثروبولوجيا في الوطن العربي بحاجة إلى تحليل تاريخي ومعاصر لهذه الأوضاع وضرورة ربطها بالإطار المجتمعي الذي أحاط بها استنادا إلى منطلقات تقود عمليات التحليل والفهم وإلا فقد الباحث طريقه وأحاط به عدم وضوح الرؤية.[17] فالإشكالية تكمن وراء عدم فهم المسار التاريخي لتلك المجتمعات، ذلك أن فهم المعطيات التاريخية بمنهجية أنثروبولوجية أصبحت أحد الحلول للخروج من أزمة الأنثروبولوجية الراهنة. فالمفاهيم ينبغي أن تستمد من تراثنا العربي وتختبر على واقعنا الاجتماعي في الماضي والحاضر[12]. فالخطاب العلمي في هذا المجال لا يجب أن يطرح خارج القوالب فكرية مغايرة للمنظومة القيمية المحلية وبالتالي يبقى التوجه نحو استخدام مقاربة مابين الفرعي يفرض أكثر نفسه في دراسة الظواهر الاجتماعية ومشكلاتها ولعل معالجة ذلك تم وفق نظريات معرفية نشأت في سياقات مخالفة للأنماط المميزة للمجتمع فمن غير الممكن معالجة قضية المشاكل المدرسية دون التطرق للإطار أو البناء الأسري، وهذا ما جعل الباحثين يقعوا في إشكالية الإسقاط الآلي للبناء النظري على المستوى الميداني وهو ما يجعل الباحث يتحول من أنثروبولوجية واقعية إلى التنظير لفلسفة اجتماعية بمعطيات غائبة أو مجهولة. إن مسألة التجربة الأنثروبولوجية في الجزائر لم تعرف ضمن النطاق العام أي على مستوى الاهتمام النظامي بقدر ما أصبح الخطاب مختزل ومقدم لنخبة المجتمع وهذا يعود لمسألة عدم معرفة ما تطرحه أهمية البحوث الاجتماعية في دراسة الخطط الاجتماعية والاقتصادية مع إمكانية التنبؤ التي تطرحها تلك البحوث الاجتماعية والتي تعد ضمن أهداف البحث العلمي الاجتماعي.

لكن ما يستدعي الذكر هو محاولة تقديم أطروحات أنثروبولوجية من طرف الباحثين لمسألة الحراك العربي والتي بقيت خلف الستار دون إظهار أية اهتمامات وإبراز أي مشاريع بحثية لقولبتها في أطر نظرية ولعل ما يستوقفنا هو مسألة تدريس الأنثروبولوجيا في جامعتنا العربية عموما اختزلت في مجال ممارستها كمهنة مثلها مثل بقية التخصصات ولم توظف تلك البحوث لتقديم قراءات لتلك المؤسسات وهذا ما يفسره دائرة الفراغ التي

تعيشها الأنثروبولوجيا من ناحية عدم تمكنها من تحليل لتلك المعطيات الكمية التي أفرزتها حركة التغير الاجتماعي أو ما اصطلح عليها الثورات العربية وما أنتجته من تحولات على مستوى مؤسساته وخطاباته وهذا ما يؤكد القطيعة الأكيدة للسوسيولوجيا والمجتمع. ويوضح لنا تطور المجتمع دون انتظار التحليلات السوسيولوجية. فنحن مطالبون اليوم كباحثين بإعادة اختبار لتلك المحصلات الفكرية والتصورات النظرية التي أسقطناها على واقعنا، أي إعادة تفكيك معرفي بهدف تطوير واقعنا المعرفي إن الانشغال الأنثروبولوجي في الجزائر ارتبط ارتباطا وثيقا بمشروعية المجتمع وبالتالي فالرهانات التي قدمها المشروع المجتمعي أدى إلى حتمية فشل الأنثروبولوجيا، لكن ومع هذا الطرح يمكن أن نطرح مدى امتثالية الرهانات الأنثروبولوجية التي جندت لمعالجة المجتمع وأنساقه. حيث يذهب الباحثون لتلخيص أزمة غياب الأنثروبولوجيا لعوامل منها:

- سيطرة السياسي على العلمي وهنا يحافظ الباحث على حس الخطاب الرسمي الذي يلعب فيه دور مرجع صدى الصوت.

- ضعف منظومة التكوين وضحالتها وسطحيتها فلا زلنا نخلط بين التيارات والمقاربات الفكرية وعدم التحكم في المفاهيم.

- إهمال البحث العلمي وتهميشه والذي يعتبر حجر الأساس.

تدريس الأنثروبولوجيا في الجزائر:

دائما وفي إطار تحديد الإدراك المعرفي للممارسة الأنثروبولوجية يأتي عنصر تدريس الأنثروبولوجيا كجزء أساسي لمعرفة مؤشرات وملامح الأنثروبولوجيا الجزائرية. وأحد العوامل التي بإمكانها تفسير أزمة التنظير لقضايا الأنثروبولوجيا العربية، تبقى المعرفة والقاعدة الفكرية التي تسعى المناهج ترسيخها لدى فاعليها ضمن أولويات مكونات الخطاب الأنثروبولوجي. إن تدريس الأنثروبولوجيا قد عرف إصلاحات إصلاحات التعليم العالي وفق نطاق تدريس هذا التخصص مع تجنيده ضمن مشروع تعريب العلوم الاجتماعية وبالتالي أسر الخطاب. هذه الأطروحات أدخلت الأنثروبولوجيا في بؤرة معرفية وزيادة

الفجوة بين أنثروبولوجيا الأخر الذي انتقل للحداثة الفكرية أثروبولوجيا لأنا المنغمس في أطروحات الأخر وإسقاطها بآلية تبعية نموذجية، هذا النوع من الانشغال أدى إلى انتحارها في شكل خلط فكري ومفاهيمي دون حمل أية رهانات مستقبلية . لكن بعد اعتماد سياسة التفتح على المجتمع بمختلف فروعه وميادينه وسياسة الإصلاحات والاستقلالية البيداغوجية لهذا العلم، إلا أننا نلاحظ الغموض مازال قائما رغم هذه الاستقلالية وهذا يعود لربما لحاجة المجتمع وتمثله لهذا العلم وأهميته، حيث أرجعت مسألة الاهتمام للعلوم التكنولوجية بحجة الاهتمام بالتنمية ونقص الإطارات العلمية والفكرية، ولذلك فان مسألة تطور الأنثروبولوجيا في الجزائر تظل محل رهان إيديولوجي أكثر من مسألة نقص الفاعلين الأنثروبولوجيين بالرغم من البيئة الإسفنجية التي بإمكانها امتصاص الأزمات الفكرية والمعرفية بمنهجية أنثروبولوجية.

الأنثروبولوجيا: من سؤال المنهج إلى سؤال الفكر

في بداية الأمر ينبغي أن نتساءل هل استطاعت الأنثروبولوجيا المساهمة في تأصيل أسئلتنا الاجتماعية مع مراعاة البنية العميقة لهذه التحولات ؟ ما الذي منحته هذه المناهج من أدوات وآليات في قراءة وتفكيك هذه التحولات، وخصوصا إذا عرفنا أن البحث" في الظواهر الإنسانية بالآليات والوسائل العلمية في عالمنا العربي لم ينشأ مثلما حدث في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية موصولة بصيرورة وبالتالي النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة فالمعالجة الأنثروبولوجية مرهونة بالتناول المنهجي والآليات المنبثقة من خصوصية الظواهر ولعل هذا ما انعكس على بحوثنا وأطروحاتنا وفي تحليلاتنا للوقائع الاجتماعية والثقافية، فعملية التفسير من بين التحديات الهامة التي تواجه الباحثين خلال الطرح الأنثروبولوجي، ناهيك عن الأخطار الناجمة عن أزمة التفسير فالتحديات التي تواجه الباحث في هذا الحقل هو التعارض بين الفهم والتفسير، بحيث لا يمكن تحقيق الفهم دون تفسير.فالفهم قد أصبح واقعا معترفا به بحيث يهدف إلى تجاوز التفسير السببي للفعل الثقافي والاجتماعي الذي يضفيه الفاعلون . لكن في البحث الأنثروبولوجي لكي نصل لعملية الفهم الصحيح للظاهرة الاجتماعية علينا أن نفحص

الظاهرة جيد وهذا دور الباحث فالملاحظة تبقى المرحلة الأولى المنهجية التي نرصد من خلالها المعطيات، لكن في إطار المساهمة الأنثروبولوجية التي تقتضي التموضع خارج المجتمع وهذا بغية الوصول لتحليل وتفسيرات للفرضيات التي تقدمها الإشكالات والوصول لنتائج وفهم سلوكات الفاعلين فالباحث هنا لا يقتصر على الملاحظة وتسجيل الواقعة وإنما يكون مشارك فيها وهنا تدخل الذاتية. وهي أحد العراقيل التي تواجه الباحث فلا يمكن الوصول للموضوعية التي تعد أحد شروط البحث العلمي[12].

أما الخطوة الثانية قراءة التراث وفهمه من منطلقات غريبة عن مجتمعنا وهذا ما يتجسد في البحوث التي قام بها كل من محمد أركون ومحمد عابد الجابري في مسألة قراءة التراث بآلية العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث تم عرض الفكر بفكر مغاير فعندما نتحدث عن العقلانية الدينية في المجتمعات الغربية ليست هي نفسها في مجتمعنا، وهذا ما أقحمنا في التبعية الفكرية فكلا البناءين مختلفين وهنا ينبغي أن نلتمس أن مسألة الحذر المنهجي هي من المسائل التي يغامر عليها الباحث في طرحه. ولعل الاقتراب الفكري وتدجين المفاهيم داخل البيئة المحلية أصبح الهاجس الإبستيمولوجي الذي يهدد مكانة البحث الاجتماعي في مجتمعنا.[13]

إن البحث في أزمة الأنثروبولوجيا العربية وإرجاعها لعلاقة الفكر بالمنهج لهو الخطاب العلمي الذي تبنى عليه معظم البحوث رهاناتها البحثية فلقد ظلت مسألة الفكر مسألة بعيدة كل البعد والاحتمال الواقعي في الطرح الأنثروبولوجيا ,فالمنهج هو أحد الأهداف والوسائل التي ظلت إحدى انشغالات الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية وخاصة الأنثروبولوجيا التي تعرف على أنها العلم المنهج بقواعده التفسيرية الدوركايمية أو الفهمية الفيبيرية. فإشكالية المنهج تطرح بشكل مباشر في تناول الظاهرة فهي التي نؤطر من خلالها ونصل للقاعدة الفكرية ونستطيع من خلالها تقديم تفسير عقلاني للواقعة الاجتماعية دون الغوص في الأطر المعرفية التي حملت البناء الذي جسد هذا المنهج. لكن هذه العملية ظلت من الرهانات المستحيلة الطرح فإشكالية تبعية المنهج أدت إلى الانزلاق الفكري والإسقاط الآلي المعرفي في قراءة الأنا ومعطياته بمنظور أنثروبولوجيا وأطر الأخر وهذا ما

يجعل المسؤولية تقع مرة أخرى في إحداث القطيعة الإبستيمولوجية بين فكر الآخر وتأثيراته على الأنا المتخلف والتابع في طرحه العلمي الأنثروبولوجي، فالتبعية المنهجية تظهر من خلال التوظيف لأساليب وتقنيات البحث العلمي في تحليلات الظواهر الاجتماعية وهذه التبعية ساهمت في انتقال التبعية الفكرية وهذا ما يطرح إشكالية عدم ملاحظة الباحث لواقعه بامتياز إذن تظل مسألة أن الأنثروبولوجيا تنظر وتتطلع للأخر هي القاعدة النسبية والمحورية في خطاباتنا الراهنة.[14]

خاتمـــــــة:

لا أحد يستطيع أن ينكر الإنجازات العظيمة التي أحرزتها العلوم الاجتماعية بصفة عامة خلال العقدين الماضيين نتيجة لتطور فهمها للروابط بين النظرية والتجربة، ونتيجة للطفرة الهائلة التي أحدثتها التكنولوجيا الجديدة للمعلومات التي وفرت وسائل وأساليب متطورة لجمع البيانات وتحليلها واستنباط مدلولاتها إلا أن هذه القدرات لا زالت بحاجة إلى تفريز وتطوير في العالم العربي من جهة ومن جهة أخرى أن أغلب الدراسات الأنثروبولوجية في الوطن العربي لم تسهم في تطوير المجتمع العربي وذلك لافتقارها إلى نموذج ملتزم بقضايا ومشكلات الوطن العربي يعكس خصوصية هذه المجتمعات وبالتالي تكون له أهداف واستراتيجيات واضحة لمعالجتها وحلها في إطار تلك الخصوصية كما كان عليه الحال في المجتمعات الغربية والشرقية، إلى جانب هذا توجهات النخب السياسة صاحبة القرار حيث عدم جديتها في تناول قضايا التنمية والتحديث والتغيير الاجتماعي في الوطن العربي.

من خلال هذه الدراسة تمكنا من صياغة مجموعة من التوصيات منها:

- التأكيد على ضرورة وجود أثروبولوجيا في الوطن العربي تعمل على فهم أفضل لواقع المجتمعات العربية.

- إعادة الاعتبار لعلم للأنثروبولوجيا في الجامعات العربية وإعطاء هذا التخصص الأهمية وتمكينه من تطبيق آلياته العملية، وإعطاء الحرية لمشتغليه في مختلف المهن لأنهم يعتبرون كملاحظين ومنتجين لخطاب علمي يساعد في إنجاح المخططات التنموية الاجتماعية.

- ضرورة وجود نموذج إرشادي ملتزم بقضايا ومشكلات الوطن العربي يعكس خصوصية هذه المجتمعات وبالتالي تكون له أهداف واستراتيجيات واضحة لمعالجتها وحلها في إطار تلك الخصوصية.

- ضرورة تواصل واتصال بين علم الأنثروبولوجيا وفروع التخصصات الأخرى التي تشارك في العلوم الاجتماعية في اهتمامها ببعض الظواهر عن المجتمعات العربية بحيث يعمق من مفهوم شمولية الظواهر الاجتماعية ويؤدي إلى ت ا ربط وظيفي أو مؤسسي بين التخصصات يهدف في نهاية الأمر للنهوض بهذه المجتمعات ومعالجة مشاكلها في إطار المنهج العلمي.

- ضرورة التوازن بين تعليم المقررات العربية في الجامعات والهيئات الأكاديمية العلمية وبين المقررات الغربية وذلك لإتاحة الفرصة أمام هذه المؤسسات العلمية للمقارنة بين كفاءة المنظور العربي على مستوى التنظير والمنهج حتى يمكن أن يبين ذلك عن طريق باحثين ذوي كفاءة على تطوير التنظير المنهجي في الفكر الاجتماعي العربي.

الهوامش:

[1] عبد الباسط عبد المعطى: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989.

2- Kuper, Adam: Anthropologist, Rouledge and Kegan Paul, London, 1983

[2] عبد الباسط عبد المعطى ،اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

[3] عبد العزيز عزت، علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة.

[4] محمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي في الوضعية المعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.

[5] حسين شحاتة سعفان: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، 1998.

[6] الدليل البيبليوغرافي للرسائل الجامعية في مصر، المجلد الأول، الإنسانيات، ، القاهرة.

[7] سالم عبد العزيز محمود: دراسات سوسيولوجية وأنثروبولوجية في الريف المصري ، دار المعارف، القاهرة.

[8] جمال معتوق :علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا

[9] هشام مريزيق :المدخل إلى علم الاجتماع، دار الراية للنشر والتوزيع، الأردن.

[10] إحسان محمد إحسان: المدخل إلى علم الاجتماع، دار وائل للنشر والتوزيع، عمار(الأردن)

[11] زينب شاهين" :الاتجاه الاثنوميتودولوجي "، مجلة الفكر العربي، السنة1 ، عدد 31 و32

[12] أنور مقراني: محاولة في تأصيل مفهوم التأويل في العلوم الاجتماعية، كتاب جماعي، جامعة سطيف، الجزائر.

[13] حلف محمد الجارد ، معضلات التجزئة والتأخر وآفاق التكامل والتطور، منشورات اتحاد الكتاب العرب، عمان، الأردن.

[14] أبو بكر باقادر، حسن رشيق، الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار الفكر، الأردن، 2012.